الفصل السادس

حوار الحضارات

- المبحث الأول: مقدمة تاريخية عن عالمية الإسلام.
- المبحث الثاني: حوار الحضارات في المفهوم الإسلامي.
- المبحث الثالث: التقاء الإسلام بالحضارات الأخرى.
- المبحث الرابع: مراحل التطور التاريخي للعلاقة بين الإسلام والغرب.
- المبحث الخامس: الرؤية المستقبلية لحوار الحضارة وأهميته وشروطه.

حوار الحضارات

المبحث الأول

مقدمة تاريخية عن عالمية الإسلام

ظهرت الطبيعة العالمية لرسالة الإسلام من الأيام الأولى. كان حول الرسول ﷺ سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي لقد آخى الإسلام بينهم وصهرت روحه القوية فوارق الدم والجنس فيهم كما كان حوله الرجال والنساء والأطفال؛ أحرارًا وعبيدًا.

وعندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة كان من أعماله الأولى المؤاخاة التي قام بها بين المهاجرين والأنصار فقرن كل واحد من المهاجرين بواحد من الأنصار اعتبره أخاه، ووصل كرم الأنصار، وثقتهم في هذه المؤاخاة إلى الدرجة التي كان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر نصف ماله وإحدى زوجتيه بعد أن يطلقها.

وكانت الثانية هي «صحيفة الموادعة المشهورة» التي جمعت الفئات اليهودية داخل إطار «أمة المدينة» ورتبت عليهم واجبات كما منحتهم حقوقًا وواجبات.

وتعد صحيفة الموادعة من أولى المعاهدات التي ترتفع فوق حواجز الدين وفوارق الجنس وتمنح الجميع حقوقًا وواجبات متساوية.

ومع الزمن كانت الطبيعة العالمية للإسلام تتضح وكانت نصوص القرآن صادعة بذلك، وصلت الآيات التي يتصدرها «أيها الناس» محل الآيات التي توجه إلى المؤمنين.. والتي تصرح ببعثة الرسول ﷺ «إلى الناس جميعًا» وتصف «عالمية الإسلام» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [لأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وسلك الإسلام طريقة «حضارية» سليمة في الدعوة لعالميته، تلك هي الخطابات التي أرسلها الرسول ﷺ إلى ملوك الدول المعروفة وقتئذ الروم والفرس ومصر وكانت هذه الكتب تدعو هؤلاء الحكام إلى الإيمان بالإسلام أو تحملهم مسئولية إبقاء جماهيرهم في ظلمات الكفر إن رفضوا.

وكما هو معروف فقد رفض الجميع باستثناء المقوقس الذي لم يرفض ولم يقبل، وأهدى إلى الرسول ﷺ هدايا.

وأتم الخلفاء الراشدون ما بدأه الرسول ﷺ؛ ذلك أنه كان يسع المسلمون وليس لديهم قوة أن يقنعوا بتبليغ الملوك ولكن عندما توفرت لهم القوة كان لا بد من تبليغ الشعوب والأمم، بصفة عامة برسالة الإسلام.

ذلك أن التبليغ برسالة الإسلام باعتباره الرسالة الخاتمة.

ولننظر سويًا إلى هذه الآيات الكريمة: -

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

على أن هناك نقطة دقيقة يجب إيضاحها، ذلك أن الإسلام كما هو عقيدة دينية، فإنه أيضًا عدالة دنيوية، وقيم حضارية، وقد استبعد الإسلام نهائيًا فرض العقيدة الدينية بالقوة؛ ليس لأنها تخالف طبائع الأشياء فحسب ولا لأنه لا قيمة لدين يكره عليه صاحبه، ولكن أيضًا لأنه لا يخالف النصوص القرآنية الصريحة في أن الله تعالى لو شاء لجعل الناس أمة

واحدة وأن الهداية مردها إلى الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

هنا نجد أفضل صورة للعالمية، صورة تعرف الناس بدين يستبعد عبادة الأحبار - والرهبان والملوك والطغاة، ويعرض عبادة الرحمن الرحيم الخالق الكريم رمز القيم والمثل الغائبة والإيمان برسول الله ﷺ رحمة للعالمين... ولكن هذا العرض لا يعني الإجبار، إنه مجرد عرض، دور المسلمين فيه أن يكونوا شهداء عليه.

وفي الوقت نفسه فإن تطبيق القيم الإسلامية والنظم الإسلامية التي تقوم أساسًا على العدالة، وتستبعد كل صور الظلم والطغيان تحرر المجتمع، وتفتح أبواب الحرية، وآفاق المبادرات للأفراد جميعًا.

يتضح مما سبق أن للإسلام «عالمية» وضعها تطبيقًا لتوجيه القرآن أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذه العالمية لا تقف أمامها حدود أو سدود وهي تنظر إلى الناس جميعًا دون تفرقة بين أبيض واسود. ذكر وأنثى، والإسلام يجد من واجبه أن يعرف للناس هذه العالمية بالإسلام كعقيدة دينية وعدالة دنيوية وقيم حضارية، فالمسلمون هم حملة رسالة عليهم أن يبلغوها، وفي العهود الماضية لم يكن ذلك متيسرًا بغير العمل العسكري الذي يشعر الجماهير به، فضلًا عما يتمخض عنه من حرب، أو إيمان، أو موادعة تكون كلها لها آثار بعيدة المدى إن لم يكن في إسلام هذه الأقوام فعلى الأقل تعرفهم على قيم الإسلام وبالتالي ثورتهم على قيم الطغيان والجبروت[1].

خلاصة القول أن الإسلام بطبعة عالمي وأن عالميته تقوم على التعريف به، وما فيه من قيم، وأن هذا يمكن أن يتم مع احتفاظ الأمم الأخرى بأديانهم؛ لأن الإسلام وإن كانت عقيدة من ناحية فهو نظام في ناحية أخرى وقاعدته العامة هي الآية ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) د. أحمد عبد الرحمن وآخرون: الإسلام والعولمة، ص١٤٦، القاهرة، مؤتمر عن العولمة، والصراع بين الإسلام والغرب، ١٩٩٩م.

تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

سمات عالمية الإسلام ومظاهر ذلك:

وتتمثل عالمية الإسلام كذلك في عدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه في إقليم خاص، أو بيئة معينة. ويكون عالميا بامتداد هدايته أزمانا طويلة تتجاوز العصر الذي بدأت فيه. بمعنى أن يكون الدين صالحًا لكل جنس، وكل جيل ولكل زمان ومكان. وبمعنى آخر: يكون الدين عالميًّا: إذا كان شريعة الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة، التي لا تدخل في ماهية الإنسان كإنسان، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين.

ونود أن نتعرف إلى الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالميًّا وصالحًا لكل زمان ومكان. ونجمل هذه الخصائص في ثلاث:

١- وفاؤه بحاجة الإنسان جميعًا، فيما يصون وحدتها، ويرعى إنسانيتها، ويحمي أفرادها في العاجل والآجل.

٢- تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد، ولا تنزع معه إلى عصبية دم، أو اختلاف لون، أو فرقة جنس.

٣- اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود؛ بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر.

وكذلك لا يكون عالميًّا إلا إذا صحب الإنسان في جميع أزمانه المتطورة، وعصوره المتلاحقة، أي: يكون خالدًا، لا يعتريه نسخ أو زوال ولا عقم ولا جمود؛ موفيًا بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة في كل الميادين التي يزاول فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل. ولا يوجد دين من الأديان السماوية فيه هذه المواصفات التي تجعله عالميًّا، إلا دين الإسلام.

والعالمية من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام؛ لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها، مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود.

فالرسالة الإسلامية قد توجهت للناس كافة، من جميع الأجناس والألوان، وفي كل العصور، وبالعالمية التي اتصف بها الإسلام، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه إلى أقوام بعينهم، في عصر معين[1].

وأن الإنسان وهو يتابع عالمية الإسلام يلحظ بوضوح: أن العالمية في الإسلام، قد قامت على عناصر متكاملة:

العنصر الأول: وحدانية الإله، وإنكار تعدد الآلهة، ومن هنا كان أساس الإيمان في شريعة محمد ﷺ أن يكون بالله وحده لا شريك له، وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه.. واقتضى هذا العنصر:

١- وحدانية الربوبية. فلا خالق، ولا مدبر، ولا متصرف سواه.

٢- ووحدانية الألوهية. فلا معبود، ولا مسؤول، ولا مستعان سواه، وبالوحدانية بشقيها دعا الإسلام.

العنصر الثاني: الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء، سواء منها ما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على إخوانه السابقين؛ لأن هذا الإيمان عنصر من عناصر الإسلام، لا يتحقق إلا به.

فالإيمان بوحدانية الله، والإيمان بكتبه، ورسله، عناصر رئيسية في العالمية التي جاء بها الإسلام.. ولكن ألا ترى معي أن عالمية الإسلام قضية لا بد لها من أدلة تدعمها، وشواهد تثبتها، ولهذا سنحاول أن نعرض هذه الأدلة لتكون علائم الكمال، ومعالم الطريق في عالمية الدين الإسلامي

المجموعة الأولى: أدلة تعتمد على ما ورد في كتاب الله، وسنة نبيه محمد ﷺ من قوله وفعله. إذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة.. وأدلة الكتاب: جاءت منها آيات مكية،

(١) انظر الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، سماته وحاجة الإنسانية إليه، دار الثقافة، الدوحة، د. ت، ص ١٣٢.

تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى، ومنذ أشرقت على الناس، كما جاءت منها آيات مدنية تنبئ عن العالمية واستمراريتها.

ومن الآيات المكية:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

وإذا انتقلنا بعد ما ذكرنا من آيات القرآن الكريم، إلى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله.

يقول رسول الله ﷺ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[١].

ويقول رسول الله ﷺ: «إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»[٢].

وفي كتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى ملكي عمان، قوله: فإني رسول الله إلى الناس كافة، الإنذار من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين[٣].

المجموعة الثانية: تقوم أدلتها على العوامل الأساسية، إذ أن المقومات الأساسية، الخالدة للإسلام: أنه قائم على العقل والبرهان، وأن هناك ـ أصولًا أولية يتألف منها دستور علمي، يوجه إلى ينابيع الحكمة، وهي تنحصر في هذه الكليات التي تفيد:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٨١٠).
(٢) رواه البخاري في صحيحه بفتح الباري، ج١، ص: ٥٣٣.
(٣) القسطلاني: المواهب اللدنية، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (١/ ٢٢٥).

دوام النظر، والتفكير في الوجود إجمالًا، وفي الكائنات التي فيه تفصيلًا، ودرس أحوال الأمم، والاعتبار بها، وتنور نواميس الاجتماع خلالها، والاستهداء بالأعلام المنصوبة في الوجود لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية، ومن الهوى في الحكم على الأشياء، والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال؛ الذي قدره الخالق للإنسان في هذا العالم، واعتبار وحدة الإنسانية، وأن الناس ما قسموا إلى أمم وشعوب وقبائل، ليتخالفوا ويتناكروا، وإنما ليتعارفوا ويتحابوا.[١]

ويضاف إلى ما سبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية الإسلام: أن كلمة «الإسلام» لا تدل على اسم شخص بعينه، أو أمة بعينها، وإنما تدل على صفة مخصوصة بضمنها معنى الإسلام.

ويظهر من هذا الاسم: أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال، وليس خاصًّا بأمة معينة، دون سائر الأمم، وإنما غايته أن يصبغ الأرض جميعًا بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلمًا كل من سيتحلى بها في المستقبل.

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة، تتسع لماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم، كما اتسعت نبوات الأنبياء جميعًا، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر.

والإسلام بلغة القرآن: ليس اسمًا لدين خاص، إنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل اتباع الأنبياء.

المجموعة الثالثة: أدلة واقعية، وهي كثيرة، وكلها تشهد لعالمية الإسلام وأنه دين الإنسانية كلها، وسنحاول أن نشير إلى الحقائق الواقعية التالية:

أولا: كان من السابقين إلى الإسلام أبو بكر العربي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي.

---

(١) عطية صقر: الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، ص ص: ٢٤ ـ ٢٥.

وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان من رؤساء قريش في الجاهية محببًا فيهم، مؤلفًا لهم، وكان إليه الأشناق[١] في الجاهلية، كان إذا حمل شيئًا صدقته قريش وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه.

فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه[٢].

أما بلال بن رباح: فقد اشتراه أبو بكر الصديق ﷺ وأعتقه لله عَزَّوَجَلَّ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أبو بكر سيدنا، واعتق سيدنا، يعني بلالا.

وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بكلمة سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وعمار، وبلال، وسمية أم عمار[٣].

وأما سلمان الفارسي: فأصله من فارس، وكان ببلاد فارس مجوسيًّا، سادن النار[٤]. فجاء إلى العرب في قصة طويلة وأسلم.

وأما صهيب الرومي: فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة[٥] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل.

ثانيا: ومن الحقائق الواقعية في التعامل الإسلامي الدال على عالمية الإسلام: «أنه نادى كل الناس» فكانت العقيدة الفائقة التي وضعها الإسلام، والمبدأ العام الذي يجب أن تسير عليه البشرية في تطورها؛ لتصل إلى غايته هو المعبر عنه في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) الأشناق: هي الديات التي يدفعونها ومفردها (دية) ابن الأثير، أسد الغابة ج: ٣، ص: ٣١٠.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٣١٠.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٥، ص: ٤٨١.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ: ٢، ص: ٤١٧.

(٥) هي: بلدة على شاطئ دجلة، على بعد أربعة فراسخ من البصرة في زاوية الخليج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة، كان سكانها قوم من الفرس، يعملون في البحر، فلما قرب منهم العرب نقلوا ما خف من متاعهم وعيالهم إلى مدينة سيدان. انظر ياقوت الحموي معجم البلدان جـ: ١، ص: ٧٦ ـ ٧٨ محمد ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار ص: ٨ ـ ٩.

فالإسلام ـ كما يفهم من النصوص القرآنية ـ جاء ليقيم رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعًا بالله الخالق، فهم جميعًا عباد الله لا ليجعل شعبًا معينًا شعبه المختار.

والرسول ﷺ الذي أمر بتبليغ الإسلام، خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ولم يرسل ليكون هاديًا إلى قومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لبني إسرائيل، وكما أرسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بني إسرائيل، إنما أرسل ليكون للناس أجمعين.

ثالثا: ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام: الكتب والرسائل التي بعث بها النبي ﷺ إلى ملوك الأمم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

يقول ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ رسلًا من أصحابه كتب معهم كتبًا إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

- فبعث دحية بن خليفة الكلبي، إلى قيصر ملك الروم.
- وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.
- وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.
- وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر.

وأشار ابن هشام، في سيرة النبي ﷺ إلى كتبه ورسائل أخرى إلى ملوك عمان، واليمامة، والبحرين، وتخوم الشام[1].

ومن أمثلة هذه الكتب: ما أرسله النبي ﷺ إلى النجاشي، إذ قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد ـ رسول الله ـ إلى النجاشي ملك الحبشة.. أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، خلقه الله من روحه ونفسه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ: ٤، ص: ٢١٧، باختصار شديد.

وأن تتبعني وتؤمن بالذى جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

والأدلة على عالمية الإسلام أكثر من أن تذكر، وتتجلى في الإسلام وأحكامه، وتشريعه، وأخلاقه، وفضائله، وكل ومضة من ومضاته، وإشراقة من إشراقاته.

وهذه العالمية للإسلام التي أبرزناها لها مظاهر أخرى في قابلية الإسلام للحوار مع الحضارات الأخرى، مما سنوضحه فيما يلي.

(١) المرجع السابق، ٢١٨.

المبحث الثاني
حوار الحضارات في المفهوم الإسلامي

تعد قضية الحوار مع الآخر فريضة شرعية اقتضتها دعوة الإسلام، التي اعتمدت في رسالتها إلى العالم منطق الرفق واللين والمجادلة بالتي هي أحسن.. ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولعل الحوار في أدق معانية ودلالاته الاصطلاحية: يعبر عن اتجاه سام بالمجتمعات الإنسانية بعيدًا عن نزق الأهواء، وجموح العواطف، وغائلة الظلم، والتعصب، والانفلات... والحوار إلى جانب هذا: يعد من أرقى الوسائل إلى إقرار الحق والعدل والمساواة في دنيا البشر؛ إنه توظيف حيوي لملكات الخير في النفس البشرية كي تعمل دورها في الحياة للحيلولة دون انحدار البشر على اختلاف انتماءاتهم الحضارية إلى شفا الحروب والصدامات. !

والإسلام ابتداء، ومن منطلق دعوته الكونية لم يضمر لأحد من الناس كيدًا ولا ضغينه ولا حقدًا قط، «فالإسلام يريد لعالميته أن تستعيد مكانها تحت الشمس ولا يريد أن يدفع الشعوب الأخرى أن تأخذ بها قهرًا وقسرًا كما فعلت وتفعل حضارة الغرب»[(١)]. فغير المسلمين اعتمد القرآن في خطابه إليهم منهج الحوار، ولا سيما القضايا الأكثر حرجًا وتعقيدًا، وذلك صيانة للمسلمين والمؤسسات؛ فرغم خلافنا العقدي معهم لم يشأ الله لنا التعرض إليهم بسب أو تجريح؛ تلافيًا لما قد لا يعود بنفع على دعوة الله عز وجل في الأرض ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وأهل الكتاب قد ميزهم الله في كتابه الكريم من حيث الخطاب والمعاملة؛ ذلك بأنهم - افتراضا - معنيون كمثلنا بتأمين عقيدة التوحيد في أرض الله، فهم أصحاب رسالات سماوية، وأهل نبوات خالية، والطبعى أن يسعوا حثيثًا من جانبهم إلى التعاون معنا في سبيل غرس القيم السماوية في نفوس البشر أجمعين، كل بحسب ما لديه من مرجعيات ...

(١) منير شفيق: قضايا التنمية والاستقلال في الصراع الحضاري، دار الناشر، بيروت، ١٩٩٢، ص٩١.

فلما كان التفريط من جانبهم والصد والإعراض: أرشدنا الله تعالى إلى كيفية مخاطبتهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ولما بلغت الإساءة من جانبهم إلى الله مبلغًا؛ أخذ القرآن الكريم يخطب ودهم، متوسلًا بما ينبغي الالتقاء عليه، والالتفاف حوله، والعمل من أجله ... ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والإسلام في هذا السياق يعتنى بالأصول والكليات، ويهتم بما هو أهل للاتفاق عليه، دون خوض في تفاصيل ثانوية لا طاقة لأولى الجد بها!! ولعل الدعوة القرآنية إلى اعتبار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رمزًا مشتركًا لقضية العقيدة من دلالات الرغبة في الإسلامية الصادقة في النأى بآليات الحوار الحضاري عن أجواء الاختلاف والتوتر والعصبية..[1]

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهي خطوات جادة - من خلال الحوار حول الإيمان بأنبياء الله جميعًا - نحو التقارب والتعارف والتعايش في ظلال مفاهيم سليمة سمحة كريمة، خالية من التمايز الزائف والتفاضل المغشوش ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

«إن الله حينما نوع الأجناس لم يرد أن تتناكر وتتخالف، ولكن أراد أن تلتقى».

ولقد اقتضت عالمية الإسلام: شق قنوات اتصال بالآخرين، ومد يد التعاون والتفاعل الإيجابي معهم، وذلك وصولًا إلى تحقيق قدر معقول من التوازن في حركة الحياة، وكذلك صياغة توليفة تناغمية جيدة من تلك الأضداد المتنوعة وبوسائل ربانية حانية

(١) عطية فتحي الويشي: حوار الحضارات وإشكالية التصادم، وأفاق الحوار، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ٢٠٠١، ص ٢٦٦.

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

أما من استغنى: فللإسلام بشأنه العهود والمواثيق، فلقد كانت المدينة المنورة مقام خليط من الملل والأعراق والعصبيات؛ فاتجه النبي ﷺ إلى وضع دستور تتحدد من خلاله معالم الوحدة الاجتماعية، وتصورات التعايش الحضاري مع أصحاب الرسالات وأهل الذمم والعهود.

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار، ودعا فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم: أن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.. وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله»(١).

وفي عجالة: نتجه اضطرارًا إلى سوق ما قد يتبدى - لبعضنا - لبعده عن سياق موضوعنا، وهو فيما يتصل بأدب الحرب وأخلاقها في الإسلام؛ إذ لا ينبغي لحرب أن تكون مباغتة من جانب المسلمين تجاه خصومهم، إلا إذا نقضوا العهود وخرقوا الذمم؛ ... حينئذ يرى الإسلام وجوب إعلامهم بالانتقال إلى حال الحرب ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ومع اشتداد هول الحرب، وحمأة وطيس المعركة: شرع الإسلام كذلك منطق الحوار ومراجعة النفس والاستجابة لمبادرات الخصوم.. ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٨-٣٩].

فليس للإسلام حاجة في التقاتل والتدابر والحروب، وتاريخنا منذ بواكيره، وعلى امتداد قرونه، وانتهاء بواقعنا المعاصر لم يسطر قط في صفحاته أي ظلم من جانبنًا بحق الآخرين على اختلاف عقائدهم وتباين أفكارهم، يقول المفكر أودين أ. كالفيرى Kalvairy: «ولم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة هذه أحدًا من المسيحيين أو اليهود على اعتناق

(١) عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، مصر، دار الريان، ١٩٨٧، (١٢٨/٢).

الإسلام فلقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية التدين وإقامة شعائرهم»[١]. ومن ثم وضع الإسلام بفتوحاته - التي امتدت شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا - عن البشرية أغلالها وفك أسرها، واعتنى بكرامة الإنسان وحفظ حقوقه أيما حفظ وعناية.

ولقد أقر السيد أنتوني ناتانج Antony Natang في مذكراته بهذه الحقيقة الناصعة حيث ذكر: «وطبقًا لشهادة المؤرخين المسيحيين: فقد صدرت أوامر صارمة إلى الجنود المسلمين إبان الحروب الصليبية» بحماية أرواح المسيحيين، وممتلكاتهم، ولم يتعرض مسيحي واحد للمضايقة بسبب ديانته، وهذا فارق جدير بالتنويه بالقياس إلى الفظائع التي ارتكبها الفرنجة[٢].

إن الإسلام يرى في اختلاف الأجناس والألوان، وتباين الطبائع والأفهام، وتعدد المواهب والقدرات وما في نحوه.. من مقتضى حكمه الرب جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، فلعل هذا الاختلاف يحقق للبشرية قدرا من طموحها وتطلعاتها إلى التنمية الحضارية من خلال التعاون والتفاعل الإيجابي فيما بين يدي بني الإنسان من معطيات السماء المادية والروحية، والثقافية والأخلاقية.

فالحوار من ثم كان ضرورة بشرية، بحكم طبيعة تلك المعطيات، وفضلًا عما ينبغي الائتلاف عليه من أمور ترجح - في الحقيقة - ما قد يختلف بصدده[٣].

«فعلى الناس أن يستشعروا الرابطة الأسرية الكبرى التي بينهم، فأبوهم آدم وأمهم حواء، وبهذه الرابطة ذكر القرآن الناس وكثيرًا ما ناداهم «بابنى آدم»فلم لا يعيشون عيشه الأسرة الواحدة ويرجئون كلمة الفصل بينهم إلى من إليه مصيرهم؟»![٤].

---

(١) ت. كو يلرنج: الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته، ت. عبد الرحمن محمد أيوب، دار النشر المتحدة - مصر، سلسلة الألف كتاب الأولى، د. ت، ص ١٦٤.

(٢) أنتونى ناتانج: العرب تاريخ وحضارة، دار الهلال، مصر، (١٩٨٠ - ٢٦/٢).

(٣) عطية فتحي الويشي: المرجع سابق، ص ٢٧.

(٤) د. عبد العظيم المطعني: مبادئ التعايش السلمي في الإسلام، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٩٩٦، ص١٥١.

وبعيدًا عن جو الصدامات والحروب: أتاح الله للطاقات البشرية مجالات خير متعددة تستوعب زخمها الطاغي اللحوح، ولتثبت من خلال تلك المجالات كفاءتها، وتحقق بالعمل النافع لكل البشرية ذاتها الحضارية، وتميزها بقيم الخير.. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

«وتأييد الله في هذا السياق لا يقر المحاباة إلا بالحق، فتلك سنة من سنن الله من خلقه لا تبديل لها ولا تحويل[1]» ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ٢٧.

المبحث الثالث

التقاء الإسلام بالحضارات الأخرى

اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة تم بناء على أن العالم هو أقرب ما يكون إلى «منتدى» عالمي لحضارات متميزة تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى، ومن ثم فإن بينها ما هو «مشترك حضاري عام».

وأيضًا فإن هذه الأمم تتمايز حضاريًّا[١]، الأمر الذي يستدعي الحفاظ على الهويات الحضارية المتميزة لا لمجرد الحفاظ عليها رغم أهميته إنما لأسباب وطنية، وعقدية تلعب دورها في إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها، لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروعة، والطاقات المحركة في معركة الإبداع، ولما للتعددية الحضارية من دور في إثراء مصادر العطاء العالمي[٢].

والذين يعايشون حياة الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، أو يغوصون في تراث هذه الأمم وفلسفتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها يدركون أن العالم الإنساني به أمم متعددة تتميز كل منها بشخصيتها القومية، والحضارية المتميزة.

وإننا إذا نظرنا في مذاهب هذه الأمم وأعرافها، وفي معايير الحلال والحرام، والمشروع والممنوع لدى أبنائها، وفي موازين الأذواق والحاسة الجمالية، وفي تصوراتها لمكان الإنسان من الكون، وتصوراتها لمصيره بعد الموت، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة.. إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، في هذه القضايا الأمهات أدركنا السمات التي تمايز بينها جنبًا إلى جنب مع سمات تشترك فيها، فتجمع بينها[٣].

ولا يخفى أن الباحث الذي يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري، يجد أنها تضرب بجذورها في أعمق أعماق التاريخ حيث

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة مجلة الأزهر، ١٩٨٨، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص٧.
(٣) المرجع السابق، ص٨، ٩.

كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا في الفكر الإنساني، وكان لهم تمايز حضاري[١].

ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل الفرس والصين والهند واليابان ستفضي بالباحثين إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفي النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارات.

وذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها ثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام - بعد الأحياء لهذه المواريث - ثمرة لاندماج هذه المواريث في الفكر الإسلامي، الذي استصفاها وطورها وفقًا لمعاييره[٢]. حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة ولكن إضافاتهم للأصول التي نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا. لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التي أخذوا عنها، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[٣].

إذن لا بد من التصور الذي يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى العالمي الإنساني وجدنا في هذا الفكر «ما هو مشترك إنساني عام» لا يختص بحضارة بذاتها. وفي هذا الفكر أيضًا ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز في الفكر بين ما هو مشترك إنساني، وبين ما هو خصوصية حضارية إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التي تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها، والمادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر الذي هو مشترك إنساني عام؛ وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التي هي بنت الدليل، والتي لا تختلف باختلاف مذاهب، وعقائد، وأجناس، وفلسفات

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، دار اللواء بالرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨١م، ص٨٠.

(٢) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص٩ «بتصرف»

(٣) الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ط. مكتبة التراث الإسلامي، مصر ١٩٩٠م، ص١٥١.

المكتشفين. ومن ثم فهي لا تتغاير بتغاير القوميات، والحضارات. بل هي واحدة على المستوى الإنساني. كما أن موضوعاتها - المادة وظواهرها - واحدة هي الأخرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات.

فعلوم مثل الرياضات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها، وحقائقها، وقوانينها ومكتشفاتها، لكن حقائق علومها - أي فكرها العلمي - ستظل واحدة، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد، والحضارات[١].

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها - على نحو ما، وإلى حد كبير - العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات التي ترشد أداء الإنسان، وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لا تستغني عنها أية حضارة مهما سميت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون معها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر. وهذه العناصر الخارجية تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة؛ فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت، ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل؛ فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عارًا وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة لا خطر فيها ولا خوف منها[٢].

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة؛ فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم. ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين، وحضارات الإغريق، والكنعانيين، والآراميين، وجزر بحر إيجه، وفي الغرب

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة ص ١٦.
(٢) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، فرنسا، ١٩٨٢م، ص١٥٢.

ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة. وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعًا لهذا الاختلاط والتزاوج[١].

في هذا الجو جاء الإسلام، إنه لم ينتشر في فراغ؛ فالأمم التي صادفها أو اتصل بها في حركة المد الكبيرة، أو تلك التي اعتنقته ودانت به أمم عرفت حضارات شتى، وثقافات متنوعة، ومرت بتجارب روحية، وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولًا، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك. ومن هنا كان التأثير والتأثر، ومن هنا كان التفاعل والإخصاب، وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم، وتشعبت آراؤهم. وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والإصهار، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات. وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صيغة فريدة، ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها[٢].

وكلما ذهبنا نبحث في حضارات الأمم وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضاري اللذين عرفهما التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو «مشترك» ولما هو «خاص» قد تم وفق «ما هو مشترك إنساني عام» وهناك ما هو خاص؛ فالتقاء الحضارات - وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية - وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى هو قدر لا سبيل

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.

إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه تم دائمًا وأبدًا، وفق هذا القانون الحاكم: التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام تفتح له الأبواب والنوافذ، بل يطلبه العقلاء، ويجدون في السعي إلى تحصيله، وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون - في حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه ويتمثل من ذلك الذي يرفضونه لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية.

ويستطيع الباحث في الحضارات أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها في أخذ وعطاء وفق «ما هو مشترك إنساني عام» و«ما هو خصوصية حضارية».

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارات الفارسية، والهندية، واليونانية.

والمثال الأخر: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

أما المثال الأول الذي يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارات الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ بعيدين عن التفتح العقلي، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت. كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن الكريم؛ فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي، وتحرك عملي وعلمي.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين لقاء مودة أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها مسترشدين بالمنهج العلمي العام الذي رسمه للمسلمين مصدرًا التشريع الإسلامي العظيمان: القرآن والسنة. كل فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التي رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم صراطها المستقيم[1].

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ ص١٢٢.

إن الدولة الإسلامية الجديدة التي عملت على نشر الإسلام في الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكي تعطي، إنها لم تقبل التراث الفكري اليوناني وغير اليوناني إلا لكي تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافًا مضاعفة. فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود وأصحاب الحضارات القديمة يغترفون منها ما كان في وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديدًا[١].

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها في عملية البناء كان رائدهم في ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها و«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، والخلاخيل، بل بناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون في كل شيء، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضي، وينطلقون للمستقبل، ويستفيدون من القديم، ويبنون الجديد، وكانت لهم جولات في كل ناحية من نواحي الحياة: في العلم، وفي الحكمة، وفي الأخلاق، وفي الفلسفة، وفي الطب، وفي الهندسة، وفي الجغرافيا، وفي الفلك، وفي الصناعة، وفي الكيمياء، وفي الصيدلة، وفي الزراعة، وفي التاريخ، وفي القصص، وفي اللغة، وفي الحيوان، وفي الفيزياء، وفي الأحجار، وفي البحار والمعادن[٢].

ولم يدخر المسلمون جهدًا في البحث عن تراث الأمم السابقة. واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على الثقافات اليونانية القديمة، والفارسية، والهندية، وغيرها من الثقافات التي نمى إلى علمهم أنها موجودة في أي صقع أو قطر[٣].

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، مرجع سابق ص ١٦٧.
(٢) الدكتور توفيق الراعي: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٨٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٩٠.

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفرًا باللغة العربية. فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة، والعلوم، والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة التي ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارة العريقة[١].

١- لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية:

ليس هناك شك في أن الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية في إطار الدولة الإسلامية قد أتاحا أوسع الفرص لتفاعل حضاري واسع، وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي. لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامي - إبان تبلور حضارته، وبين الميراث الفارسي يستطيع أن يميز بين ما «قُبل» وبين ما «رُفض» من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية: النيل، وبردى، ودجلة، والفرات. ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبنى النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية الذي كان يسمى «وضائع كسرى» وظل سائدًا ومعمولًا به حتى عدل في ظل الدولة العباسية.

فأنت ترى أنه في عهد عمر بن الخطاب تم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية. ولكن المسلمين الناشرين للإسلام في فارس كانوا حذرين كل الحذر وشديدى الرفض والمقاومة لكل ما هو «خصوصية حضارية» فارسية، تتعارض مع معايير الإسلام، وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهي نمط متميز في الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية التي كانت ترى رأس الدولة «كسرى» ابنًا للإله «أهورا - مزدا» يحكم باسمه، ونيابة عنه زاعمًا أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين.

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي، ص ٢٢١.

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ميراث الفرس في النظام الطبقي المغلق لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات. والذين يقرءون مصنفات علماء الإسلام في الملل والنحل، وصراعهم الفكري مع الفرق والمذهب غير الإسلامية يدركون المقاومة الباسلة التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم[1]. فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية، ولعلوم التمدن العملي كان الحذر بل المقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة للمعايير الإسلامية، إنْ في السياسية أو في الاجتماع أو في الدين.

٢- لقاء الإسلام بحضارة الشام. مصر وبلاد الشمال الإفريقى:

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التي كانت تنتظر الإسلام. ونشأت الحضارة الإسلامية في كنف القرآن الكريم، والسنة النبوية. وكانت الأمم الداخلة في الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء، وبدت أعظم مظاهر هذا المزج في النظم الاجتماعية، والآراء العقلية.

واشترك الدعاة إلى الإسلام مع أهل البلاد التي فتحت صدرها للإسلام في الحركة الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة، وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية الاجتماعية، والطبائع العقلية.

وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية؛ ولهذا أسهمت في نشأة الحضارة الإسلامية. وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقي - كانت ذات ميراث بيزنطي - استفادت منها حضارة الإسلام في (تدوين الدواوين) وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية سعى إلى مدرسة الإسكندرية؛ ليتعرف على ما فيها من تراث، وقد كتب إلى أبيه يزيد بن معاوية يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد، فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه في هذا الشأن يقول فيها:

---

(١) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص٢٠٨.

أيا راكبًا نحو الشآم عشية ... يؤمُّ دمشقًا قف فحمل كتابيا
وبلغ يزيدًا حين يتلو رسالتي ... وقل خالد قد نال ما كان راجيا
ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة ... وحزتهما من بعد طول عنائيا

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنذاك قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب[1].

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية، وفنون التمدن العملي والتي سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع حضارتي مصر والشام، وتبنت ما في هذه المجتمعات من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية، فإنها في الوقت نفسه حاربت الغنوصية والهلينية في الفلسفة، وعارضت عقائد ومذاهب المسيحية التي أخرجتها الروح الهلينية عن نقاء عقيدة التوحيد.

٣- لقاء الإسلام بالحضارة الهندية:

الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب مختلفة الأجناس، والمذاهب الدينية، والفكرية، والاجتماعية. وجهود الهند في التعليم قديمة جدًّا، وأكثر نتاج الهند الفكري كتب باللغة السنسكريتية وهي معروفة الأصول؛ مما ساعد على معرفة جميع نواحي الثقافة الهندية.

والباحث في الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا في جميع العلوم القديمة، وأشهر علوم الهند:

- الفلك والرياضيات. وأقدم الرسائل الفلكية هي كتاب (السدهانتا) حوالى ٤٢٥م، ثم أبحاث (أريابهاتا) أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذي علل الكسوف والخسوف في حركة الأرض حول الشمس. أي قال بدوران الأرض حول الشمس، وشرح كروية الأرض في دورتها الحيوية حول محورها، كما عرف هذا الرياضي النظام العشري.

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ، ص٨١.

- الفيزياء والكيمياء: وجدت في الهند مذاهب فيزيائية مختلفة. وقال بعضهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد، وإن الشمس مصدر الحرارة للعالم. وفسر آخر: الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيمياء فقد تقدمت مع تقدم الطب الهندي والصناعة الهندية. وكان الرومان ينظرون إلى الهند كأمهر أمة في الصناعات الكيميائية مثل الصباغة، الدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

- الطب: وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب. وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمفوي، وأنواع العضلات وحركاتها، ويعرفون تجبير العظام، ويفهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون في ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١].

ولا شك أن تفاعلًا حضاريًّا في مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره في محيط الحضارة الإسلامية من واقع تأثيرات التمازج والمخالطة. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب (السدهانتا) السند هند[٢].

وفي أيام ابي جعفر المنصور قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم (السدهانتا) السند هند باللغة السنسكريتية. وقد كلف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الفزاري بتعريبه ففعل، وقام الخوارزمي بتصحيحه ومراجعته[٣]. وقد استفاد المسلمون من الأرقام عند الهنود فهذبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٤].

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية أخذ ما يتناسب معه، وترك ما لا يتفق مع مبادئ الإسلام مما هو خصوصية حضارية؛ فالبيروني (٣٢٦ - ٤٤٠هـ - ٩٧٣- ١٠٤٨م) الذي نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عامًا عقب الفتح الغزنوي لبعض أقاليمها.

(١) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ط. دار الفكر ١٣٩٣هـ، ص٥١١، ٥١٢
(٢) الدكتور مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٣٠.
(٣) فيليب طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، جـ١، ط. بيروت، ص٥٠.
(٤) أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ، دار اللواء بالرياض١٤٠١ هـ ص ٩٤.

والذي درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقري المتفرد: البيروني هذا يعلمنا أن أسلافنا ميزوا بين العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية التي أخذوها وطوروها وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التي رفضوها؛ لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ومع إلهية المصدر الديني في الإسلام[١].

٤- لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية:

يكاد يكون معروفًا أنه ليس في الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب مثل الحضارة اليونانية، لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية، والمصرية، والفينيقية، والفارسية، ثم أضافت إليها آثارًا فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادئ خلقية سامية يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره. ولا شك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية تأثيرًا في تكون الحضارات ولكن هذه الأسباب لا تكفي لتفسير ما تميزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع، والابتكار. لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحصوها أعمق تمحيص، فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا منها ما استبقوا، ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب، وإنما هي حضارة متميزة أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان[٢].

ويذكر العلماء أن الحضارة اليونانية عرفت باسم الحضارة الهلينية نسبة إلى (هلين) الجد الأكبر الخرافي للشعب اليوناني. وقد انتشرت هذه الحضارة الهلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجاري الاستعماري، ولما فتح الإسكندر المقدوني الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق، فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهلينية، وأخصبت عدة مراكز في الشرق[٣].

ولما جاء الإسلام وجد في هذه المراكز حضارة يونانية، في الإسكندرية، وفي أنطاكية وغيرهما. وكان لا بد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود عنوانًا على حضارة هذه الأمة الآرية التي علمت الإنسانية الكثير من أنماط الفكر وسياقاته، ولكن

(١) البيروني: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة، ص ٨٠، بتصرف.
(٢) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية. دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٨٦م، ص ٥٤.
(٣) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص٥٠.

كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها المتصل ببيئة المجتمع اليوناني، ولذلك حين وضع الإسلام فلسفته المعبرة عن حضارته كان لا بد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس وتعارض في المنهج، وفي المادة بينه وبين الفلسفة اليونانية[١].

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية آخذين إياها من مصادرها الشرقية في البلاد التي فتحوها؛ فترجموا تراث اليونان في الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا «الحيل»، الزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية والعلمية، والتجريبية. ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية؛ لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة وكيف كان يصارع بعضها بعضًا، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر. فهناك ميادين في المعتقدات، والإنسانيات اليونانية قد نفر منها المسلمون، فضربوا عنها صفحًا ولم يترجموها، ولا حتى للمختصين من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[٢].

إذن أفاد المسلمون من الحضارة اليونانية في حدود «قانون التفاعل الحضاري» الذي يميز دائمًا وأبدًا بين ما هو «خصوصية حضارية» وبين ما هو «مشترك إنساني عام».

المثال الآخر: لقاء الحضارة العربية بالحضارة الإسلامية:

والباحث في انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية يجد أن هذا الانفتاح قد تحقق من خلال:

١-نقل التراث الإسلامي في صقلية.

ولا يخفى أن المسلمين قضوا في حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهارًا شد انتباه غير المسلمين، فلما استولى الأوربيون على جزيرة صقلية استفادوا من الحضارة الإسلامية، واستطاعوا أن ينقلوا إلى لغاتهم تراث

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ١، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م، ص١٠٢.
(٢) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢١٢.

المسلمين الحضاري المزدهر في جزيرة صقلية؛ مما كان له أثر واضح في النهضة الأوربية الحديثة.

٢- نقل التراث الإسلامي في بلاد الأندلس:

إن المسلمين استطاعوا في قوة أن يقيموا حضارة الإسلام في بلاد الحضارة والعلم؛ مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على أيدي علمائها، ويترجموا تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثاني مركزًا رائعًا للجمال المادي والنشاط الفكري، ونما ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة في عهد ابن الحكم الثاني الذي كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الإسلامي لابتياع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وإذا كانت قرطبة وغرناطة وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت في أيدي غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارية واصلت ازدهارها في ظل النقل والترجمة والإبداع.

٣- نقل التراث الإسلامي أثناء الحروب الطبيعية:

كانت الحروب الصليبية صراعًا بين الكنيسة والشرق الإسلامي، وهدف هذه الحروب تخليص الأراضي المقدسة من المسلمين، وقد استمرت قرنين من الزمان. ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هي العامل الوحيد في تقدم أوربا حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية، ويرى بعض العلماء أن الشرق الإسلامي قد أثر في الغرب المسيحي إبان الحروب الصليبية من أربع نواح هي:

١- في الكنيسة البابوية؛ إذ قامت في بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلًا من «الثيوقراطية» الدينية التي كان يحلم بها البابا.

٢- كما أثرت الحروب في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك؛ إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص، كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضي الأشراف.

٣- كما أثرت الحروب في العلاقة الخارجية للدول ونظام أوربا بتأثيرها في الكنيسة من ناحية، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية.

٤- كما أثرت تلك الحروب في العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا. فنهضت حركة الارتياد والرغبة في الاستزادة من المعلومات[١].

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم؛ فاستفادوا من الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة.

إن أوربا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية، وتأخذ عنها، وتستفيد منها فيما هو «مشترك إنساني عام» أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية فقد رفضه الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية: علوم المادة وظواهرها، وخصائصها، وعلوم التمدن المدني والعلمي مثل علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة والنباتات، والحيوان، وفنون وعلوم الحرف والصناعات، والتجارة والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء والفلك، والرياضيات من جبر وهندسة وحساب، والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة وغير ذلك من علوم وفنون[٢].

لقد أخذ الغرب ما سبق أن أخذناه نحن عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من الفرس والهنود وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة؛ مضافًا إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب من الحضارة الإسلامية ما هو «مشترك إنساني عام»، وترك من الحضارة الإسلامية ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

«لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، وهي خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسيطة» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام،

(١) الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ص١٦٧، ١٦٨، بتصرف.
(٢) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٨.

وعقائده. ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية هو الذي ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادي.

- فالحضارة الإسلامية قامت بعملية «توفيق» ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.
- والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة في خصوصية حضارية فكانت العلمانية.
- الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع في ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد في «ليبرالية» واضحة.
- الحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها، والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها، أما الحضارة الغربية فكان اهتمامها قائمًا على اللذة والشهوة واللحظة، وكانت سياسة الحضارة الغربية تعني «بالميكيافيلية» (فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق).
- الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها في حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

إذن وبكل تأكيد هناك ما هو «مشترك إنساني عام» تأخذه الحضارات من بعضها، وتسهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد الذي يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ ونجد ذلك واضحًا في أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

---

(١) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٤٩-٢٥٠، بتصرف.

المبحث الرابع
مدخل التطور التاريخي للعلاقة بين الإسلام والغرب

الموجه الأولى (مرحلة ما قبل الحروب الصليبية ٦٣٠م: ١٠٩٥م):

لما كانت المدينة المنورة مقامًا لخليط من الملل والأعراق والعصبيات؛ اتجه النبي ﷺ إلى وضع دستور تتحدد في ضوئه معالم الوحدة الاجتماعية، وتصورات التعايش الحضاري مع أصحاب الرسالات وأهل الذمم والعهود.. قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار، واعد فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.. أن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رسول الله ﷺ»[1].

إن ظروف وملابسات الاحتكاك الحضاري بين المجتمعات الإنسانية: كانت مرتبطة دائمًا بمدى درجة الوعي الحضاري لدى هذه المجتمعات. ولعله كلما التصق هذا الوعي بالقيم الدينية في صورتها الأولى النقية؛ قلت أو انعدمت أسباب الاحتكاك أو التصادم. وبإسقاط هذا المعيار على تلك الحقبة التاريخية: نجد أن الاحتكاك بين الغرب المسيحي والإسلام لم يكن منذ بواكيره مسلحًا كما زعم هانتنحون - اللهم إلا اعتباره المواجهة الإسلامية بيهود في المدينة - كأحد الشواهد للتصادم المبكر مع الإسلام - مع بني قينقاع في شوال من السنة الثانية من الهجرة، على إثر نقضهم العهود وإخلالهم بميثاق التعايش السلمي مع المسلمين وتحرشهم اللازم بالمسلمين والوشاية بهم في عموم الجزيرة العربية؛ فضلًا عن كون حركة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: عمر تدمري، دار الريان، مصر، ١٤٠٧ هـ، (٢/ ١٤٤ ١٤٦-).

النفاق خرجت أصلًا من تحت عباءة يهود.!! ويأتي هذا الاعتقاد في سياق صهره اليهود في بوتقة الحضارة الغربية. وإن كنا نقرر من جانبنا: أن علاقة الغرب بالإسلام أخذت طابع التحرش والعنفوان فيما تأخر من سنى تلك الموجه، كمقدمة لما تلاها من صراع بلغ أشده وذروة عنفوانه واتساع بقاعه بعد ذلك.

وعلى أي حال: فقد سجل الإسلام حضورًا إيجابيًا أينما حل وارتحل؛ فقد عرض دعوته على المجتمعات المتاخمة، وقد لاقت تلك الدعوة قبولًا عامًا وارتياحًا من جانب تلك المجتمعات، فقد حققت لهم مزايا نفسية وروحية واجتماعية وسياسية واقتصادية.. ما كان لها من وجود في حمأة الظلم والمعاناة، والتعسف والاضطهاد من جانب الفرس أو الرومان على السواء. فلقد كان الفرس والرومان بالنسبة للشعوب التي اتجهت إليها ناحية الفتوحات الإسلامية بمثابة استعمار وعلامة قهر وتخلف وضياع؛ فكان الإسلام ضمادًا لجراح بشرية مثخنة وغائرة، وبعثًا لموات آمل البشرية في عيش هانئ رغيد.

وعلى الجانب التاريخي فقد وضعت الدولة الإسلامية حدًّا للضياع الذاتي الكامن في داخلة النفس الإنسانية، والتي لم يتحقق لها - على امتداد عمرها الزمني - أي خصوصية أو هوية واضحة المعالم[1].

فلقد استغرقت حركة الفتح الإسلامي ثمانين عامًا لتلك البلاد التي احتلها الرومان فمثلًا في ثمانية قرون. ! أو لعل هذا الاختزال الزمني الهائل يكشف عن فلسفة الفتح الإسلامي ذاتها: إذ اعتمد الإسلام لوهلته الأولى، وفي سياق امتداده الحضاري عمومًا: مبدأ الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كأحد مقومات الحركة الراشدة، فلقد حمل الإسلام على أجنحته قيم الرحمة والبر والتسامح.. ومن ثم انطلقت الحركة الإسلامية تزيح كابوس القهر الخانق، وتبدد ظلام الاستبداد المطبق، وراحت تفك أواصر انعقدت بأغلال العرق واللون والطبقية النكراء.. «ويجادل كثير من الكتاب الغربيين - في لجاج مفهوم - بأن هذه الدولة كانت إمبراطورية استعمارية لم تخرج عن أن تكون غزوًا وإخضاعًا وتبعية، والحقيقة أن الدولة الإسلامية كانت تحريرية بكل معنى الكلمة، كما قد نقول،

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ١١٩.

فهي التي حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الروماني أو الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه المادي»[١].

إن أحد البحاثة الغربيين - مونتجمرى وات Watt يصف الفتح الإسلامي لأسبانيا بأنه «حدث مفاجئ هابط من السماء بالنسبة للأسبان».!

ومن جهة أخرى: فقد أدى امتداد الفتح الإسلامي إلى أطراف غرب أوربا، وشمال البحر المتوسط، والى أفريقيا والأندلس غربًا، والى معظم قطاعات أوربا الشرقية وآسيا الوسطى شرقًا إبان تلك الموجة؛ أدى ذلك بدوره إلى ميلاد أفكار مشوهة وانفعالية عن الإسلام لدى بعض من أولئك الذين استعصوا على التجاوب مع حركة الفتح الإسلامي ونظروا إليها بشيء من الريبة والتوجس وسوء الظن؛ مما خلق جوًّا ملبدًا بالعداء، لاسيما هنالك عند الحدود الغربية التي أمست مثارًا للتصادم وسفك الدماء.!

يقول المفكر الفرنسي روجيه جارودي معلقًا على موقعة بلاط الشهداء - بواتية (١١٤هـ، ٧٣٢م): «لم تكن هناك معركة في بواتية لأنه لم يكن هناك غزو إسلامي عسكري، بل كان هناك رسل حضارة، ولكن للأسف حالت البربرية الفرنسية دون أن يستفيد الشعب الفرنسي من الحضارة الإسلامية كما استفادت منها إسبانيا لعدة قرون ... إن إسبانيا استطاعت بفضل ما اكتسبته من الحضارة الإسلامية: أن تبني أسطولها الذي اكتشفت به أمريكا»[٢].

والحقيقة أن أوربا لم تشعر على امتداد تاريخها الطويل بأي تحديات حضارية تقريبًا سوى من جانب الإسلام خلال أربعة عهود بالتحديد؛ بيد أنه لم يكن ثمة ما يحمل على خصومة الإسلام - كرسالة سماوية - لم يتح أي فرصة للتلاقي والتفاهم والحوار، ولكن مع ذلك فإن الغرب ظل جاهلًا بالإسلام لجهله وتخلفه كمجتمع وحضارة.

هذا ولم تشأ الأقدار لتلك الموجة أن تقلع برحالها دون أن تترك لأجيال الغرب إرثًا هائلًا من الحساسية المفرطة والحقد الملتهب تجاه الإسلام؛ ولقد أخذت تلك الأجيال على مسئوليتها طرق البوابات الغربية على حدود الإسلام بقوة واستفزاز..!

---

(١) جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال، مصر، ١٩٦٨، ص ٣٠.

(٢) ر. جارودي: من أجل حوار بين الحضارات، تعريب: ذوقان قرقوط، دار النفائس، بيروت ١٩٩٠، ص١٦٥.

لقد كان أحد أهم أسباب هذه الحساسية: ذلك الحرج الذي سببه الإسلام لدى قوى الظلام الديني والسياسي في أوربا. إنها ردة فعل الهزيمة والإحباط اللذين حلا بكافة مؤسساتها؛ حيث تحولت ردة الفعل تلك في مرحلة ما من التاريخ الأوربي إلى حشد الجهود استعدادًا لما سموه هنالك بالخلاص: خلاص إسبانيا، ومحاكم التفتيش وحروب صليبية...!!.

الموجة الثانية: (وتمتد من ١٠٩٥م غداة الحروب الصليبية وحتى نهاية القرن الثالث عشر).

ولقد جاءت تلك الموجه بعد اتساع ملك الدولة المسلمة وتبحر سلطانها وترامى أطرافها ... ورغم هذا فقد بدت الخلافة الإسلامية واهنة نسبيًّا، غير ذي طول حكيم ومكن عميم؟ من ذلك الامتداد الجغرافي الهائل؛ الأمر الذي أغرى بكثير من الأمراء إلى التنافس المحموم على الملك والتفرد والاستقلال؛ فسادت روح الفرقة والتنافر والانقسامات ... وكان مما يقوله أبو المظفر الأبيوردي بين يدي نذر هذا الضعف والارتخاء:

أرى أمتـى لا يشرعـون إلى العـدا ... رماحهـم والديـن واهـى الدعائم
ويجتنبـون النـار خوفًا مـن الردى ... ولا يحسـبون العار ضربـة لازم[1]

ولقد أيقظت حركة الفتوحات الإسلامية - على الجانب الآخر - شعورًا سلبيًّا لدى الغربيين بمدى التفاوت الحضاري بينهم وبين المسلمين؛ مما أوجد نوعًا من التحفز والتحضير لتعبئة العقلية الغربية المختلفة بحتمية الزحف نحو الشرق المسلم.

ومع بداية العقد السابع من القرن الحادى عشر: كانت مقاليد الأمور في الغرب لا تزال تمامًا بقبضة الكنيسة الكاثوليكية، وتحقق للبابا أوربان الثاني السواد المطلق بعدما أذعنت له أوربا بأطرافها.

ولقد عبر أوربان نفسه عن سمات تلك المرحلة، داعيًا إلى نبذ الفرقة والتنافر، والاتجاه قبل الإسلام ثأرًا لمسيحيتهم، بقوله: «لقد آن الزمان الذي تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر، فالحرب المقدسة المتعمدة الآن ليست

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٦٨/١٢.

هي لأخذ الثأر من إهانات ضد البشر، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بجملتها[١].

ولقد خلط دعوته هذه - وهو يشق طريقه نحو العالم الإسلامي - بآثار من العهد الجديد: «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا»[٢].

فلقد تأسس الفكر الحربي للحملات الصليبية كلها على مبادئ وأفكار حملتها الأولى، والتي كانت بمثابة روح جديد سرى في عروق الغربيين تمخضت عن دفقة حقد ديني جامحة لم تتحد إلا بقدر الله.!

وهنا تتعين الإشارة إلى أن جحافل الصليبين لم تكن من أوساط الفرسان الرسميين وحسب بل كان للحركة الشعبية - التي وضع بذرتها الأولى «بطرس» الناسك - دور هائل في تلك الحروب حيث خرجت حشود الفقراء عن بكرتهم نحو الشرق المسلم وبداخلهم رغبة تغلي بخلاص الروح وطرد المسلمين الكفار من أرض المسيح، وإن كانت تلك الرغبة قد اختلط بها شيء من أمل الخلاص من الفقر المرير؛ كأمل تلوح بشائره في آفاق عالمنا الإسلامي، الكافر والغنى.. !!.

بل لقد كان المنطق السائد في ذلك الزمن البئيس بشأن معاملة المسلمين: «أن المسيحي الذي يبيد أعداء دينه لا يخرج بذلك عن نطاق الإيمان، لأنه بفعله هذا إنما ينحر القرابين إرضاء للرب[٣]. وكان هناك سبعون ألفًا من الضحايا المسلمين بعد غارة صليبية واحدة - على القدس - جاست خيول الغادرين حتى لجامها في دمائهم بين أطلال الخراب.

وبغض النظر عما يثار حول عقائدية الحروب الصليبية من شكوك ... يمكننا أن نقرر بأنها اكتسبت زخمها واستكملت عنفوانها، بل واستلهمت توجهاتها من وحي الدين! ولقد استنهض قادتها هِمم شعوبهم ذات مرة ـ الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩م ـ بتصوير تمثال للمسيح وهو ذبيح بسكين محمد ...!! فهب القوم عن بكرتهم هبة حمقاء أخمدها صلاح الدين وردها خائبة.!

---

(١) علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، دار عكاظ، السعودي، ١٩٨٢، ط٢، ص ٢٧.
(٢) إنجيل لوقا: ١٤ /٢٧.
(٣) عبد الفتاح عبد المقصود: صليبية إلى الأبد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٤٤.

ولعل من أوجه الحقيقة الناصعة للحروب الصليبية: أن تلك الحروب لم تسفر عن ظاهرة الشعور بالذات الحضارية وحسب لدى الجانبين كليهما، بل دعمت هذا الشعور وأججت ناره إلى درجة لم يعد معها من رغبة لدى الطرفين إلا دحر الآخر وإزاحته، لا سيما وأن العدوان الصليبي قد اتسعت جبهاته لتتجاوز الشام إلى مصر وشمال إفريقيا، فضلًا عن الأندلس[١].

«ولقد كانت الصليبيات درسًا حضاريًّا قبل كل شيء لأوروبا. فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف، وستنعطف أوربا على نفسها لتعكف على تطوير وتنمية ما تعلمته من الشرق حتى تخرج به في النهايات أرقى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد ... كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوروبا ومنحها شعورًا بالقومية[٢].

وكانت تلك الحروب الثمانية بالنسبة للغرب، تتويجا لحماس ديني أهوج تحكمه المطامع والأهواء، والجهل والتعصب.. أكثر مما تحكمه نداءات العقل ومنطق التأمل فيما أمد الإسلام به الغرب ـ الكنود ـ من مقومات التنوير، وبواعث النهضة والفلاح... !!

يقول الكاتب الأمريكي مايكل هارت: HARTT معروف لنا جميعا خطورة الحروب الصليبية، وما تركته من أثر في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وما تركته في نفوس الغزاة والشعوب التي شاركت في القتال والدفاع والنصر والهزيمة، وكيف أن هذه الحروب قد قربت بين الشرق والغرب، وكيف أن الغرب اكتشف أن الحضارة الشرقية الإسلامية أكثر تقدما من الحضارة الغربية وأن هذا الاتصال بين الشرق والغرب: هو الذي مهَّد لعصر النهضة الأوربية[٣].

ويقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي معلقا على الطريقة التي رد بها الغربيون الجميل إلى المسلمين بقوله: «إن حمّام الدم علَّم المسلمين أن يكرهوا الغرب كما لم يكرهوه من

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص١٢٤.
(٢) جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، مرجع سابق، ص ٤١.
(٣) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ت: أنيس منصور، دار الكتاب المصري اللبناني، مصر، ١٤٠٦، ص ٢٠٦.

قبل.. باختصار نجد أن الحضارة الإسلامية التي دمرها الصليبيون في بيت المقدس، كانت أرقى وأجنح للسلم من غزاتها». ولقد حكى أحد المسيحيين معلقًا على مشاعر المسلمين تجاه خصومهم بقوله: «إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وأخوتهم وبناتهم وأخواتهم، وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على أراضيهم والذين سقناهم عرايا من بيوتهم، أعطونا من طعامهم، وأبقوا على حياتنا عندما كنا نتضور جوعًا، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت رحمتهم»[1].

الموجة الثالثة (بدايات القرن الرابع عشر: نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م):

لم يعد خافيا على كل متحسس أبعاد العلاقة التاريخية بين الغرب والإسلام. إن هذه العلاقة خضعت بطبيعتها لمؤثرات الوعي الديني على صعيدي المجتمع والدولة لدى الطرفين كليهما، بغض النظر عن مدى التباين في مؤشرات هذا الوعي، بيد أن حقبة الحروب الصليبية بأحداثها المروعة قد كشفت بوضوح عن زيف ذلك الوعي الغربي بالآخر الإسلامي إلى الدرجة التي جعلت المسلمين بالكفار سواء، فكانت بمثابة إرث كريه أليم، لم يقدر للأجيال التالية أن تتعافى من تفيؤ عواقبه الوخيمة، فلقد ورث الشرق المسلم، والغرب المسيحي كلاهما شعورًا دفاقًا بالعداء والترقب تجاه الآخر، بيد أن الغرب على وجه الحقيقة: لم يكن لديه شيء من البراهين النظرية والعميلة يومئذ على سلامة موقفه هذا من الإسلام وأهله.

ولقد كان لفشل الصليبيات النسبي مردود سلبي على وحدة الغرب وتماسكه، لكن هذا التفكك لم يحل دون اتجاه مفرداته إلى البناء الذاتي والتحضير لعصر نهضة تلوح بشائره في ضوء ثمرة الاحتكاك الحضاري بالمسلمين ونقل علومهم وسائر فنونهم ونظرياتهم في مختلف جوانب الحياة».

وفي حين كانت الصدمة الصليبية مناط عظة بليغة ومبعث صيحة بوجوب الوحدة والنهوض والاستواء لدى الجانب الغربي، كانت هناك على الجانب الإسلامي قوى جديدة

(١) كافين رايلي، الغرب والعالم، ت: عبد الوهاب المسيري وآخر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٥ هـ، ص ١٩٨/١.

تفرض نفسها على مسرح الأحداث باعتبارها قدر الأمة في الخلاص من حالة الضعف والوهن والارتباط الذي حل بها بعد حقبة الصليبيات المنهكة، فلعل أبرز ما أسفرت عنه فعاليات تلك الموجة: الظاهرة العثمانية، كتعبير قوى عن حركة إسلامية أكثر حيوية وتجددًا، حيث اتجهت حركة الفتح الإسلامي غربًا نحو أوروبا، ففتحوا تراقيا الغربية: ١٣٧٤م، وصربيا: ١٩٣٢م، والقسطنطينية ١٤٥٣م، والهرسك: ١٤٨٣م، والجبل الأسود: ١٤٩٦، وبلغراد: ١٥٢١م، ورودس: ١٥٢٢م، وقبرص: ١٥٧٢م، وغيرها.

يقول محمد أسد: «وبسقوط القسطنطينية: فتح باب أوروبا على مصراعيه للسيل الإسلامي، وبالرغم من أن العثمانيين كانوا يستقبلون كمحررين أكثر من كونهم غزاة غاصبين. بيد أن تلك الفتوحات ـ رغم تسامحها الشديد ـ لم يعد ينظر إليها من جانب الغربيين لاسيما في إنجلترا وفرنسا وحتى أسبانيا: على أنها طوق النجاة، إذ لم تقابل بالرفض المجرد وحسب، بل تمثل ذلك الرفض وضعًا إيجابيًا؛ حين اتخذ في سبيل التصدي للعثمانيين اتجاهين خطرين:

أحدهما: التصادم المباشر والآخر: قوافل الاختراق الحضاري الموصومة بالكشوف الجغرافية مما يعكس تصادمًا ذات آليات جديدة..»[1].

وباختصار شديد، فإن الروح الصليبية لم ينخمد لهيب سعارها المتأجج في صدور النخبة من الأوربيين، فضلًا عن العامة، على امتداد الزمان الغربي الوسيط والحديث والمعاصر، ففي عام ١٤٥٤: وضع البابا نيقولا الخامس Nicholas الأكثر تحررا من أفكار العصور الوسطى، وأشد انفتاحًا على عصر النهضة ـ خطة ملك البرتغال تضمنت إعداد حملة صليبية كاثوليكية تشنها أوروبا ضد الإسلام للقضاء عليه نهائيا، وهي ما عرفت بخطة الهند، ومؤداها تحويل حملة صليبية لتطويق الإسلام في أفريقيا والهند وسحقهم من الخلف.

وقبل أن تخطو حركة الكشوف الجغرافية والأوروبية خطواتها الأولى: شن الملوك الكاثوليك ضد المسلمين في شبه جزيرة أيبريا ـ الأندلس ـ ضد المسلمين حربا ضروسا

(١) بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ت عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص١١٩.

استمرت عشر سنوات، استسلمت بعدها غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس ١٤٩٢، واتجه الأسبان بقوة إلى: «إجبار السكان المسلمين على التحول للمسيحية بطريقة فيها مهانة شديدة»[١]. ونصبت فيما نصبت محاكم التفتيش الأليمة عقب الإعلان عن سقوط الخلافة الإسلامية هنالك،!! وازداد في إثر ذلك سكان مملكة قشتالة حوالى أربعمائة ألف مسلم، تم تحويلهم رسميًّا إلى النصرانية، وهم من عرفوا بالموريسيكيين في التاريخ.

الكشوف الجغرافية.. وحركة التجديد في الفكر الصليبي:

وعلى حين كانت الأوضاع تتردى في الأندلس على هذا النحو المخيف، كانت أسراب الكشافين البرتغاليين وغيرهم تتسلل عبر البوابات الخلفية لحدود المسلمين الحضارية، فحين تأكد لأهالي مدينة قاليقوط الهندية رؤية السفن البرتغالية وهي تبحر باتجاه ميناء المدينة في العشرين من آيار مايو ١٤٩٨م، بادر حاكم المدينة سائلا قائد الحملة ـ الكاردينال فاسكوداجاما ـ عن علة مجيئهم للبلاد، فأجابه قائلا: «المسيحية والبهارات».

وبينما كانت الدويلات الإيطالية وفرنسا وإنجلترا وغيرها، قد أوشكت أن تبلغ درجة التشبع بأفكار العلمانية مع تباشير عصر النهضة، كانت أسبانيا والبرتغال تبدوان أشد تعصبا للكاثوليكية من باباوات روما أنفسهم، وهو ما انتقل بمسؤولية إحياء روح الحروب الصليبية على كاهل أقصى الغرب من أوروبا، فلقد تميز ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية بالإسراف في تعصبهم للكاثوليكية، ووضعوا موارد بلادهم في العالم الجديد الذي اكتشفوه في خدمة الكنيسة لضرب كل من حركة الإصلاح الديني البروتستانتية، فضلًا عن الهدف الأساسي: وهو إزالة أي أثر للوجود الإسلامي فيما يدخلونه من بلاد.

وعندما سنحت للأمير البرتغالي هنري الملاح Henri Le Navigateur ١٣٩٤ - ١٩٦٠ فكرة احتلال شواطئ مراكش الأطلنطية، ومن ثم الاتجاه نحو السنغال وغانا، وتطويق المسلمين، وطعنهم من الخلف بمساعدة ملك الحبشة، حينئذ أصدر البابا نيقولا الخامس مرسوما بابويا، استهله بقوله: «إن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز، هنري، أمير

(١) المرجع السابق ص ١٣٠، ١٣٣.

البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون، وبوصفه جنديًّا قديرًا من جنود المسيح ليقضى على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة..» ا. هـ.

ولقد كان كرستوفر يزعم أنه مبعوث القوة الإلهية لنشر المسيحية في الأراضى الجديدة، ثم قام مسيحو شبه جزيرة أيبريا بمطاردة المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة، ثم انتقل نشاط الأسبان إلى شمال وغرب إفريقيا لتعقب المسلمين، ثم راودتهما الأفكار في محاصرة المسلمين عن طريق البحر وطعنهم من الخلف وسحقهم في آسيا وإفريقيا.

وكان يدفع الأسبان في ذلك امتزاج الروح الصليبية بالعاطفة الوطنية، ونظر البرتغاليون إلى حركة الكشوف الجغرافية على أنه يجب عن طريقها تحويل المسلمين في غرب أفريقيا، وفي غيرها من المناطق، إلى المسيحية الكاثوليكية، وأنه يجب نشر المسيحية فيما وراء البحار وفق المذهب الكاثوليكي، بل وصلت بهم الآمال إلى حد تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة الأرثوذكسية في مصر.

ولقد باركت البابوية حركة الكشوف الجغرافية؛ فأصدرت عدة مراسيم خولت بموجبها لملوك أسبانيا والبرتغال حق ملكية كل إقليم جديد يتم اكتشافه.

وقد بلغ حد التعصب الرهيب ببعض الباباوات مداه: فوصفوا الإسلام في مراسيمهم بأنه طاعون!.. وطالبوا المكتشفين بتنصير سكان المناطق التي اكتُشفت، ووصل تشجيع الباباوات لحركة الكشف الجغرافي ليزداد الإقبال عليها بغية نشر المسيحية، بأن أصدروا مرسومًا ينص على العفو عند الحساب في اليوم الآخر والفوز بالجنة والنجاة من النار، وأمروا الملاحين برسم الصلبان على أشرعة السفن، وحمل دعاة المسيحية معهم الصلبان كما يحملون الزاد والماء.

وفي إحدى المضابط التاريخية: نجد مسطورًا بيد أحد الكشافين البرتغال الذي كاتب قادته يوما بقوله: «لقد حوصر محمد ـ يقصد الإسلام في شخص النبي ﷺ ـ ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل، والحقيقة أنه سيحطم ويحطم ولا خيار له سوى ذلك»[1].

(١) المرجع السابق: ص ٢٠٦.

ومن يوم أن بدت شمس القرن السابع عشر تميل عن كبد سمائه، وميل منحنى الحضارة الإسلامية أخذ في الهبوط مرة أخرى، في حين بدت معالم التفوق الغربي المادي تتضح شيئا فشيئا، لاسيما بعد انعتاق مؤسسات من ربقة الكنيسة، ومرورها بأطوار الاكتشافات والثورة الصناعية، فضلا عن قضايا الإصلاح الديني وبروز قطب العلمانية، والأهم من كل ذلك طور الاستعمار الغربي لبلادنا. إذ يبدو أن فشل الصليبيات على الصعيدين: السياسي والفكري، قد استنبت في نفوس الغربيين من بعدها: روحًا استعمارية شريرة وحاقدة، بل وأكسبها شراهة وطمعًا بالغ الحدة والترصد، حتى لقد ركزت جحافل الاستعمار نشاطها تجاه الشرق وما حوله، باعتباره الأرض التي تفيض ـ وفقا لمنطق العهد القديم ـ لبنًا وعسلًا، وهذا معناه. أن الفلسفة الاستعمارية التي هيمنت على طبيعة العلاقة الغربية بالشرق المسلم، برغم ماديتها، بيد أنها استلهمت توجهاتها على كافة المسارات الاستعمارية من مخلفات الموروث الديني، الذي جعل تلك العلاقة الابتزازية تنزع إلى المصيرية التي لا مفاصلة عليها ولا حوار مع العالم الإسلامي بشأنها.

وفي عام ١٨١٢م: أقدم جيش محمد على بقيادة ابنه إبراهيم على غزو اليونان، وهو ما أثار لدى الأوساط الغربية طيلة خمسة عشر عاما فزعًا وهلعًا من خطر الإسلام العائد مجددا. فلم يهدأ لهم بال أو تقر لهم عين؛ حتى تم تدمير الأسطول المصري المسلم في موقعة نفارين ١٨٢٧م بعد أن أجهزت عليه أساطيل أوروبا مجتمعة.

«وطيلة فترة تزيد على ١٢٠٠ سنة، ظل الإسلام يشوه من خلال معلومات وانطباعات إما منقوصة أو كذوبة، حتى تحولت تلك الصورة المغشوشة بمضى الوقت إلى مسلمات مستقرة في الأعماق الغربية، وظلت تلك الصورة المغشوشة عن الإسلام هي الحاكمة لعلاقة الغرب بالإسلام حتى هذه اللحظة. هكذا قال الكاتب البريطاني أرسكين تشيلدرز ثم أضاف: «إن المسيحيين لم يتم تقطيعهم إربًا بالسيف، عندما كان العرب يشقون طريقهم عبر المتوسط لكنهم كانوا يمارسون شعائرهم بكل احترام.

وفي القدس عقد المسلمون معاهدة مع أعيانها من المسيحيين واليهود، ضمنت لهم حريتهم، ولم يكن عليهم سوى أن يدفعوا الجزية للسلطة الإسلامية التي وفرت لهم الأمان والرعاية، وعلى النقيض من ذلك؛ فعندما وصل الصليبيون في عام ١٠٩٩م دخلوا القدس

بالخداع وأغرقوها في حمام الدم، وذبحوا المسلمين فيها، وفي مفارقة درامية في التاريخ لا تزال أصداؤها تتردد عبر القرون، وإن لم تعرف على نطاق واسع في الغرب، فإن الصليبيين أحرقوا يهود القدس أحياء في معبدهم؛ في حين تم الإبقاء على مختلف الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود بدون أن يمسها سوء خلال الحكم العربي الإسلامي كله. وينبغي أن يلاحظ الآن أنه في أسوأ لحظات الغضب بين المسلمين تجاه الغرب لم يتم سب الدين المسيحي أو اليهودي»[١].

وبوجه عام، كانت الفكرة الغربية عن الإسلام قد نامت شيئا ما، فقد كان شبه مستأنس لا شأن له بالجوانب الإستراتيجية للشؤون العالمية فضلا عن تجافيه طريق المؤسسات السياسية في أغلب بلدانه، حتى أن بدت نذر الانهيار في آفاق المعسكر الشيوعي، لاسيما بعد شروع المسلمين الأفغان في نجارة نعش الشيوعية، ثم كانت البروستريكا بمثابة مؤشر الاحتضار، وأعلن رسميًّا في مطلع التسعينات عن الوفاة، وشيعت الجنازة في عموم شرق أوروبا.

من يومها والأبحاث والدراسات الغربية تسعى حثيثة إلى استدعاء الإسلام من منفاه هنالك خلف دائرة الشعور المسلم، كان استدعاء قسريا؛ لا ليعبر عن وجوده كحتمية إستراتيجية تعزى تلك الأمم الجريحة في مصيبتها، فتنهض وتتفيأ العافية في ظلاله «ولا حتى من منطلق الإيمان الغربي بمبدأ التعددية الحضارية، بل كان استدعاء في سياق ما يسمى بدبلوماسية الاحتواء، تلك التي ترمى إلى وضع الإسلام في موضع العدو البديل للشيوعية. وربما نفطن إلى أسباب تعكر الأجواء وبث الفتن بين بعض الحكومات في بلدان العالم الإسلامي ومؤسسات الصحوة الإسلامية الرسمية والشعبي التي تمثل هاجسًا مفزعًا لدى الغرب وكل كاره للإسلام وأهله. هذه الأسباب تعد جزءا من إستراتيجية شاملة لمواجهة الإسلام تحت ستار مواجهة الأصوليات الإسلامية[٢].

(١) عطيه فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٢) بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ت عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١١٩.

المبحث الخامس
الرؤية المستقلة للحوار الحضاري وأهميته وشروطه

بعد أن قررنا ضرورة الحوار، والتي تقتضيها حاجة البشر إلى عالم تغشاه السكينة ويسود السلام نتحول إلى أهمية الحوار الحضاري وشروطه، والتي تعد ضمانات حقيقية للوصول إلى نتائج تسكن من روع الجهود التنظيرية المضنية، والتي ترنو بلهفة مخلصة إلى تحقيق التعايش الحضاري الوقور بين الأمم والشعوب.

ولعل الطامحين إلى الوصول بالحوار الحضاري إلى نتائج إيجابية بصدد فرعيات ثانوية، فضلا عن الأسس والأصول: لن يعودوا إلا بخفي حنين، ليس ذلك تشاؤمًا، ولكنه اعتبار بسنة من سنن الله في خلقه. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فغير خاف على أحد أن الاختلاف بين تيارات النسق الحضاري الواحد له حقيقة ووجود، فأنى للأطراف المتحاورة حضاريًّا بالاتفاق حول الفروع؟

وإذا أخذت إستراتيجية الحوار الحضاري وضعا جادًّا، وقصدا سنيا لا شوب فيه، وأحاطت بالأصول والكليات تنظيرًا وتطبيقًا: فقد أدرك راسموها مرادهم وثمرة جهودهم. ونحن إنما نعنى بالتنظير هنا: حسن صياغة الأفكار وجودة مضمونها وترتيب أولوياتها، وملاءمتها جو الحوار بما لا يخل بثوابتها.

وكذا نعني بالتطبيق: حشد وتفعيل آليات الحوار لتعكس مدى جدية عملية التنظير، وما ينبني على ذلك من تكاملات حضارية تناسبية في شتى المجالات الحيوية، بمعنى توافر فرص الشراكة في صنع الحاضر والمستقبل الإنساني، وبنسب عادلة لكل الأطراف.

وكما تشق الأفكار الآنفة سبيلا نحو أهدافها في مبادئ مأمونة من الزلل والتراجع أو التحرش والتزاحم، ثمة بعض النقاط التي ينبغي إلقاء الضوء لتوضيح مواصفات الحوار الحضاري المنشود مع الآخر:

أولا: التكافؤ:

ونعني به حيازة قدر معقول من الأهلية الحضارية، يحقق لنا وجودا متوازنا، وحضورًا فعالا ومتميزا حول مائدة الحوار، وهذا التكافؤ الحضاري لا يقاس بمعايير سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، فهذه وتلك تخضع بطبيعتها لتقليدات الظروف والأحوال الدولية، وإنما يقاس التكافؤ في الحقيقة بمقدار ما قدمته حضارة ما لكل الأمم والشعوب من منجزات مفيدة كريمة، وبمدى ما أسهمت به في إثراء الوجود الإنساني وتطويره، وإمداده بالقيم الروحية والأخلاقية على مر التاريخ.

وطبقا لهذه المواصفات القياسية، لن نكون بحاجة إلى شديد عناء بصدد تحصيل أسباب ومؤهلات التكافؤ الحضاري، ولعل ذلك مرهون بمدى استردادنا وعينا بذاتنا الحضارية، واستعادة عافيتنا في خضم أمواج من الهموم المتلاطمة، التي تفسد علينا أمرنا وتقوض أركاننا؛ بل وتنال من إحساسنا بوجودنا. تلك الهموم تتصل بإشكالية بلورة الاتجاهات الفكرية ـ والتي أقل ما يقال بشأنها أنها غير منسجمة مع بعضها البعض ـ وحشدها في نسق حضاري واحد؛ لتحقيق عنصري التوازن والتكامل في بنيتنا الحضارية.

لكن في ظل تبرم العلمانية بالمشروع الحضاري الإسلامي، وتجاهلها رصيده التاريخي الضخم؛ فضلا عن ولائها غير المتحسب للحضارة الغربية سيخل ذلك حتمًا بالتوازن التأهيلي المطلوب، مما يحول بيننا وبين تحقيق أي نتائج عادلة، وذات جدوى من الحوار.

ولعل الترادف الأيديولوجي بين الساسة والمفكرين على اختلاف مشاربهم، أمر حتمي لا محيص عنه بشأن تحقيق التكافؤ المثمر بيننا وبين الغرب مما يقتضى حوارا محليا لا يمنع إلحاحه والإسراع به من الجدية في تحديد متطلباتنا تحديدا دقيقا في ضوء موروثنا الحضاري الأصيل، والتجرد من الأهواء أمام مصالحنا العليا وغاياتنا البعيدة السامية[1].

(١) عطية فتحي الويشي: مرجع سابق، ص ٢٧٤.

ثانيا: إعادة اكتشاف الآخر:

وحتى يتسنى الخروج من حوار الحضارات بنتائج أكثر إيجابية، يتعين على كل فصيل حضاري إجراء ما يمكن تسميته بعملية «تشريح حضاري»، يتوسل بها المشرحون إلى استكناه الأنساق المعرفية لدى الكيانات الحضارية الأخرى، وذلك للوقوف على موقع الآخر في أدبياتها، ومن ثم قياس أداء آلياتها من حيث عطاؤها المخلص، ومدى استيعابها مفاهيم التعددية الحضارية وتجربتها التاريخية فيما يتصل بقضية التعايش السلمي وحسن الجوار، وكذا رؤيتها للحياة.. العالم.. الموروث الثقافي.. القيم الدينية.. النمط الاجتماعي.. الأقليات.. كل ذلك من مؤشرات فاعلية وإثمار الحوار الحضاري من عدمه «إن جارودي Garody» مثلا: يرى عبثية الحوار بين الغرب والشرق المسلم، وقلة جدواه؛ بل وفشله: «ما لم يظهر الطرف الأول عقيدته من صدأ قرون الهيمنة والتسلط الذي رزح تحته، وما لم تع تكنوقراطية الطرف الثاني شروط نظام لا يطرح المشكلة بأبعادها ومعانيها وأهدافها الإنسانية»[1].

والحقيقة أنه ليس ثمة مبرر يحمل الغرب على القلق والتوجس إزاء الصحوة الإسلامية التي تمتد إشراقاتها حتى تسطع على حدود الإسلام الحضارية، فيصفها الغرب ـ تحت الضغط النفسي ـ بالأصولية تارة وبالإرهاب تارة أخرى، مع كونها افتراضا إحدى بشريات عصور التسامح والالتقاء والتلاقح الحضاري المأمول.

وما زلنا نعاني نحن المسلمين للأسف من قصور في نظر الآخر إلينا، ومن تغافل، وتعام لتاريخنا، ومن غمط لمآثرنا وأمجادنا الحضارية. فهل الغرب من النزاهة بحيث يقر بالفضل لأهله ويرد الاعتبار لتاريخنا وحضارتنا؟ ! ثم أليس من واجبنا على جانب آخر أن نرفع هذا الظلم عنا فلا نظلم أنفسنا بإساءتنا إلى هذا الإسلام العظيم، فنكون أصدق تعبير عن قيمه وأخلاقياته ومناهجه وتصوراته؟

ولذلك أصبح من أبجديات نشاطنا الفكري الآتي بشأن السعي إلى تلاشي الانطباعات الخاطئة عن الإسلام لدى الغربيين، ليس الإدانة والانفعال، أو رفع شعارات الدفاع عن

(١) روجية جارودي: ما بعد به الإسلام، ١٩٨٣م، ص ٢٤٧.

الإسلام ضد مطاعن واتهامات المبطلين، لا؛ بل بنقدنا ذاتنا، وحسن عرض بضاعتنا، فأولئك لا يرون الإسلام إلا من خلالنا، ومن ثم يعرف قدرنا وتروج تجارتنا، فلا يزايد أحد علينا أو يبيع على بيعنا، ونعود في الأخير برضاء الله في رحالنا.

ثالثا: الاحترام المتبادل:

فإن ظواهر الأحادية والانتقاص من شأن الآخرين، والسعى إلى بسط الهيمنة عليهم ـ والعمل على إرهابهم وملاحقتهم والمظاهرة عليهم لا تعكس بحال أي نوع من الاحترام المتبادل، وإن صح تقييم تلك الظواهر على جانب آخر فإنما يعكس ـ بمرارة ـ عدم احترام أولئك الآخرين أنفسهم وتراثهم، فحق فيهم الضعف والارتخاء وقلة الفاعلية وتبدد هيبتهم في نفوس أندادهم.

وفيما تمدنا التجربة التاريخية الإسلامية من دروس وعبر: أن دلائل ومقومات الاحترام الحضاري المتبادل. هي النهوض بالتعثر، وتنشيط الخامل، وإمداد الضعيف بمقومات القوة، وحفظ مقام الآخر وكرامته وموروثه التاريخي، وتقدير ثقافته. هكذا ينبغي للأمر أن يكون، لكننا نستظهر في كل يوم ينشق فجره مسالك صارخة من جانب خصوم حضارتنا بعامة والحضارة الغربية بخاصة، ابتداء بالأثرة والضن، ومرورا بالتعويق والمزاحمة، وانتهاء بالتحرش والإزاحة.

ولا سبيل إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من احترام الآخر لنا ـ فضلا عن احترامنا لأنفسنا، إلا بالعض على عقيدتنا وقيم حضارتنا بنواجذنا.

والعمل الجاد المخلص على إعادة إنتاج الفعل الحضاري الإسلامي في صدى إشراقات تراثنا الروحية والمادية والأدبية. كذلك بنبذ احتقار الآخر وازدرائه، والتريث في رفضه فقد نتخذ هذا الموقف الأخير من الغرب، بدعوى التحوط من جانبنا لصون قيم إسلامية التي أجمل ما فيها إنسانيتها التي لم تكن يوما ما حكرًا على أحد دون أحد من خلق الله.

نعم قد يكون ذلك صحيحًا نسبيا بيد أنه في الحقيقة مسلك يوحي بالسلبية والانغلاق، الذي يقدح في إنسانية الرسالة وعالميتها، إذ هو يصرف المسلم عن رعاية حق الله في هذا

العالم بصون رسالته ونشر قيمه وإشاعة مبادئه في دنيا الناس أجمعين بلا استثناء ودون تعصب. من يدري فلربما أشرقت شمس الدعوة الإسلامية بنور الهداية الإنسانية من جهة هذا الآخر.؟ ومن ثم فأي مسلك لا يعبر عن روح الإسلام، ولا يجسد جوهره وطبيعته الإنسانية السامية، إنما يعد في سياق الفتنة التي تقطع بغير حق شعرة معاوية، ونكون من أولئك: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤].

وهكذا نبوء بالفشل الذريع في أداء رسالتنا التي أناطها الله بنا لأجل حوار يهدي إلى الرشد، ويعصم من البطر والانحراف والمنكرات، فالمسلم الحق يعرف للناس أقدارهم ويحترم الآخر وإن لم يواده.

فالحضارة الغربية وخاصة في قرونها الأخيرة فرضت نفسها كحقيقة ليس لمن يريد التعايش معها أن ينكرها، وطرحت حضارة الغرب رؤى ونظريات. وإن لم نتفق معها بجملتها، فلا يمكن إغفالها، وعلى العاقل الحصيف أن يتلمس أسباب التفاهم معها، وأن يقيم الحوار مع عقلائها، أن يميز بين المعتقد الذي لا نقبل المساس به، وبين أوجه المعاش التي نحترم ما أصله الغرب في ميدانها.

فالأمل في هذا السياق أن يتخلص الخطاب الإسلامي من نبرات الانفعال والتشنج، فكثيرا ما تفوت في غمراته فرص هائلة لخدمة الإسلام والكشف عن مذخور فضائله وشمائله في جو من الهدوء والتأمل والاقتناع. فرحابة صدر حضارتنا تتسع لأى قيم ومنتجات حضارية ذات معنى إنساني سام دونما صد أو نفور أو امتعاض[1].

رابعا: التفاهم والتعاون:

والحقيقة أننا نتطلع إلى التعامل الحضاري يوما ما في إطار مرجعيتنا الإسلامية التي تتحدد من خلالها ملامح وظيفتنا الحضارية في دنيا الوجود، والتي ترتكز في الأساس على نشر الخير والعدل والإحسان، ونبذ الشر والمنكر والظلم ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وذلك هو جوهر

(١) فتحي الويشي: مرجع سابق، ص٢٧٨.

الوسطية التي تحوزها آلية التفاهم والتعاون الإسلامي بشأن الحوار مع الآخر الحضاري ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، فإن القرآن الكريم ينادى بمبدأين صريحين لا بد منهما إذا شئنا السير في طريق وحدة البشرية وتعاونها في سبيل رقيها وتقدمها، وهما:

١- أنه لا شيء يهدم وحدة الأسرة البشرية مثل العدوان والتعاون عليه.

٢- أنه لا شيء يقرب ما بين أعضاء الأسرة البشرية مثل العمل على الخير المشترك والتواصي به، وتقوى الله في حقوق الإنسان، في السر والعلن.

ومن وحي التجربة التاريخية: نبوء بخيبة أمل فيما يتصل بقناعتنا إزاء إيمان الغرب بالتعاون والتفاهم مع الأمم والشعوب الأخرى في إطار مبادئ التعددية الحضارية، والتي تقوم الأساس على قيم العطاء الحضاري العام.

ولعل أهم ما تغتم له النفوس، ويبث فيها التوجس والترقب، أن تلعب الألوان والأجناس دورا أساسيا في فلسفة التفاعل الإنساني لدى منظومة الفكر الغربي، وهو ما يعكس الشعور الزائف بسمو الجنس، الذي ينبني بمقتضاه الكيل بمكيالين، والنظر بغير عين، كما هو حادث الآن من القوى الكبرى في العالم.

فاليهود من جانبهم لا يرون أي التزام أخلاقي تجاه الآخرين من دونهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولعل شواهد التاريخ ـ البعيدة والقريبة ـ تدلنا على مجافاة اليهود لروح الاجتماع الإنساني وإيثارهم الاعتزال والتقوقع والتربص، «فحياتهم رغم اتصالهم بمختلف الحضارات، حياة القبيلة البدوية الجوالة، فهم يغفلون العالم رغم اتصالهم به، ولا ينظرون إليه إلا نظرتهم إلى عدو يخضعون له إذا كان أقوى منهم، ويستعدونه إذا كانوا أقوى منه، وهم دائما معبئون أنفسهم تحت السلاح لشن غارة، أو دفع غارة، فروحهم الملية روح بدوية قبلية لا تحسن الاتصال بغيرها ولا تريده»[1].

(١) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص ٨٣.

ولعل قضية فلسطين ومسيرة التفاوض بشأنها، وما يختلجها من مواقف هائلة ومشاهد مروعة، من مؤكدات ما ذهبنا إليه في تبيان العجز الكائن في داخلة ذلك الكيان الحضاري غريب الأطوار مفرط النزوع إلى الحقد والعدوانية والاغتصاب، والذي لم يألفه التاريخ قط.

وقد لخص الدكتور هـ. ج دورمان H. G Dorman في كتابه ـ في الطريق إلى فهم الإسلام ـ الخلاف الذي استمر قرونا بين المسيحية والإسلام تلخيصا رائعا، فوصف أول جدل بين المسلمين والمسيحيين وهو جدل البطريق اليعقوبي يوحنا وعمرو بن العاص فاتح شمال سوريا ومصر. وكذلك عدد يوحنا الدمشقي في دفاعه عن الكنيسة الأرثوذكسية، ولقد تمكن من نشر مواعظ على هيئة أسئلة وأجوبة تساعد المسيحي على أن يرد على العربي المسلم في جداله حول الدين. وقد اهتم أكثر من خليفة إسلامي بمجالس الجدل، من ذلك ما حدث في مجلس المأمون ببغداد سنة ٨٦١م حين جلس عبد المسيح بن إسحاق الكندى يجادل عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وأخذ كل منهما يدافع عن دينه في أدب وهدوء»[١].

وفي حين خرج المسلمون من الحروب الصليبية يلثمون رعاف جروحاتهم بعد نصر مجهد تقدمته ألوان شتى من البغي الصليبي والحقد والغدر وخيانة العهود، ظفر الصليبيون بالعلوم، ونقلوا من المعارف والفنون الإسلامية ما تأسس عليه بنيان النهضة الغربية الحديثة.

ولقد نقل أرنولد أوف لوبيك Lubek على لسان أحد القادة المسلمين قوله: «فلئن اختلفت عقيدتنا فإن خالقنا واحد وأبانا واحد. يجب أن نتآخي لا بسبب عقيدتنا ولكن لأننا كلنا بشر، فلنتذكر إذن أبانا المشترك ولنطعم إخوتنا»[٢].

إن فلسفة الإسلام في التعايش مع مساليه، لا تتوقف عند حدود إقرارهم ومسائلتهم المجردة؛ بل يتعدى ذلك إلى برهم والإحسان بهم والإقساط إليهم، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

---

(١) كافين رايلي: الغرب والعالم، مرجع سابق، ص ٢٠٠.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٦٥.

ولعل مستقبل قضية الحوار الحضاري: مرهون بمدى استعداد كل حضارة لفهم، بل لهضم البعد الإنساني، واستيعاب قيم الخير والإيجابية في أدبيات كل حضارة أخرى بتجرد وموضوعية.. يستتبع ذلك تخطيطًا للعلاقات الحضارية، بحيث يعكس تلك القيم بصورة عملية وصادقة؛ إذ إن هناك وفرة من الاستفهامات التاريخية بشأن قضية الحوار، والتي ما زالت تلح بطلب إجابات شافية كافية تعلق عليها الإنسانية بعامة، والأمة الإسلامية بخاصة، آمالا عظيمة في الدفع بآليات الحوار مستقبلًا نحو مسارات أكثر جدية، وإيجابية، وإثمارًا.

والخلاصة هنا أن التفاعل الحضاري ضرورة إنسانية لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن. أما الانغلاق الحضاري فهو قاتل للإنسان، والتبعية الحضارية هي الأخرى قاتلة لكل إبداع، ولا بد من حوار الحضارات.

وإذا تأملنا في حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها ـ من وجهة نظرنا ـ محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان فهي بعد الأمة عن ماض حضاري مشرق لم تعد تربطه به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان فهي بعد الأمة عن واقع حضاري معاصر تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها. ولذلك إذا كان لا بد لهذه الأمة أن تعود إلى التفاعل الحضاري، وتستفيد من حضارات الإنسانية. ولابد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزماني والاغتراب المكاني، وذلك بالربط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر. وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير، فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية في طريق حضاري.

وإن التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات، ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا، ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي. ويجدر أن ندرك أن

الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، والتبعية الحضارية غير مفيدة أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية. والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كؤود في طريق التطور والتقدم. ويكاد يكون مؤكدا أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم وتفاعل بين حضارات آخر تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان. والنمو الحضاري إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم[1].

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلى مستقبل مشرق لا بد أن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيدا ضخما من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمح لها بأن تنمي فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية. ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانية، وإنما ذلك العمل الذي ينمي الحضارة، وينطلق من الإنسان للإنسان.

وفي كل نجدنا في حاجة لبيان أهمية الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة؛ مما سنعرض له في الفصل السابع والأخير.

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح: الحوار الحضاري ضرورة إنسانية، مجلة الدار السعودية، دارة الملك عبد العزيز، العدد الرابع، السنة العشرون، رمضان ١٤١٥هـ، ص ٢٣٥.